" لعل الفجوة التى تفصل الآن بين السياسة المصرية العربية ترجع إلى أن القيادة فى مصر تتصرف من منطلق أكتوبر 73 فى حين مازالت السياسة العربية تسلك سبيلها بوحى من حزيران 67. وفرق كبير بين الذى يتصرف من منطلق النصر والذى تغلبه الهزيمة "

متى تتخلص السياسة العربية من عقدة حزيران؟

الأهرام: 11-11-78

بقلم: نبيل راغب

إن من يتبع ما يجرى فى الساحة العربية منذ حرب أكتوبر 1973 يصاب بحيرة بالغة عندما يكتشف أن الدول العربية التى تسمى نفسها بجهة الرفض زالت تتصرف بروح الانهزامية والتشنج والصراخ التى سادت العالم العربى منذ الخامس من يونيو 1967، وكان التغيير الجذرى الذى أصاب العالم كله سياسياً وعسكرياً واقتصادياً بعد حرب أكتوبر، كأنه لم يكن. ويبدو أن العرب قادرون على تغيير العام أما تغيير أنفسهم فهذا من رابع المستحيلات بالنسبة لهم. أنها ظاهرة غريبة وشاذة حقاً. فلم يحدث فى تاريخ العالم كله أن ستطاع شعب أن يحرز نصراً فريداً على عدوه بعد هزيمة ساحقة منى بها ثم يتجاهل هذا النصر كأنه لم يكن ويتصرف على أساس من الهزيمة القديمة التى كان من المفروض أن يمسحها تماماً من صفحات ذاكرته.

إننا بهذا نؤكد ما قاله منا عدونا فى أعقاب كارثة يونيو 1967 وحاول ترسيخه فى ذهن العالم على أساس أنه خصائص ثابتة فى الشخصية العربية. لقد قال موشى ديان فى تصريح صحفى له فى يناير 1968 عندما كان يشغل منصب وزير الدفاع الإسرائيلى، وعندما كانت إسرائيل تملأ العالم يدوى انتصارها فى الخامس من يونيو 1967 قال ديان:

(إن العرب يعيشون فى عالم غير حقيقى ، وهم يفعلون ذلك غالباً مثلهم كمثل الشخص الذى يحتاج إلى الحشيش حتى يشعر أنه يعيش فى جنة عدن فالحقيقة بالنسبة لهم هى الجحيم! والعلاج هو ابتلاع حبة من حبوب الكذب، التى تعطى لهم الإحساس بالجنة غالباً ما يبدو لى أن كل العرب –وعلى كافة المستويات– يتصرفون وكأنهم تحت تأثير المخدر . والحقيقة أن الوهم أسوا من الكذب. فأنت قد تكذب عامداً وتسيطر على كذبتك، أما بالنسبة للوهم فهو الذى يسيطر عليك فى النهاية .. وأن العقلية العربية لانشغل فكرى كمشكلة سيكولوجية، إنها تفسر لى لماذا لا يريد العرب الحرب وفى الحقيقة كان من المنطقى عقب نهاية حرب الأيام الستة، حينما اكتشف العرب أننا تابعون على ضفاف نهر الأردن وقناة السويس، أن يتجهوا إلى المفاوضة، ولكن –وبعد مرور عام كامل– لم يحدث

شئ. ليس ذلك بسبب أن الحقيقة لا تثقل كأهلهم، ولكن لأن عقليتهم تقف وكأنها حاجز بينهم وبين الواقع، وتمنع عيوبهم من أن تراه كما هو، إنما يفضلون تجاهل الواقع مادامت المفاهيم الخالية التى يعيشون على هديها لم تتحطم بعد".

هذا ما قاله موشى ديان بعد كارثة يونيو 1967 بما لا يزيد عن ستة أشهر، وهو ما رددته أجهزة الإعلام الصهيونية معتمدة فى ذلك على الأبعاد الرهيبة معتمدة فى ذلك على الأبعاد الرهيبة للهزيمة المنكرة التى أصيب بها العرب، ونظراً لأن العالم لا يقتنع إلا بمنطق النتائج المادة الملموسة، فقد تقبل الموضع الجديد الذى نتج عن حرب يونيو وخاصة أن الأمة العربية كانت تبدو فى ذلك الوقت وكأنها جنة تلفظ أنفاسها الأخيرة ولا يصدر منها سوى التشنج والتقلص والأنين الخافت بينما العرب يحيطون بالجنة وهم لا يملكون سوى البكاء والتشنج ولعلم الخدود. من هنا كانت الثقة التى تبدو فى كلام ديان من أن العرب لا يريدون الحرب، ولم يكن يعلم أن حرب أكتوبر ستتكفل- بعد ذلك بخمس سنوات- بنسف هذه الأوهام الإسرائيلية التى هيمنت على جنرالات إسرائيل وقادتها الذين لم يعترفوا أنهم لم يهزموا العرب فى يونيو 1967 لأن العرب كانوا أسبق إلى هزيمة أنفسهم، ثم جاءت إسرائيل لكى تقطف ثمرة النصر الكبير التى لم تفقد فى ريعها سوى بضع قطرات يسيره من دماء جنودها.

ثم جاءت حرب أكتوبر لكى تستيقظ إسرائيل من الحلم الذهبى السعيد الذى ماشته على الضفة الشرقية لقناة السويس. وأصبح أكتوبر بالنسبة لها كابوسا تريد الاستيقاظ منه ولا تستطيع ، وأخذت الحكومة الإسرائيلية على هاتفها مهمة توفير جو غير حقيقى بل وخيالى لكى يعيش فيه مواطنوها هرباً من وطأة الهزيمة، وانقلب وصفه حيان للعرب لكى ينطبق على الإسرائيليين الذين أصبحوا كالشخص الذى يحتاج إلى الحشيش لكى يحس أنه يعيش فى جنة عدن أو أرض الميعاد. فالحقيقة بالنسبة لهم هى الجحيم وكانت الحقيقة هى أكتوبر الذى أجير قادة إسرائيل على تقديم حبوب الكذب لمواطنيهم حتى يمارسوا حياة الوهم الجميل، وبالتالى أصبحوا يفضلون تجاهل الواقع، مادامت المفاهيم الخالية التى يعيشون على هديها لم تتحطم تماماً بعد تدخل أمريكا بقواتها المسلحة تدخلاً مباشراً إلى جانب إسرائيل ضد مصر بصفة خاصة حتى لا ينتصر السلاح السوفيتى على السلاح الأمريكى، وذلك لأن حرب أكتوبر كانت قد جعلت المواجهة العسكرية بين مصر وإسرائيل مواجهة سياسية بين القوتين العظميين.

لكن السادات لم يشأ أن يترك إسرائيل سادرة فى أوهامها القديمة ، فقام بمبادرة تاريخية مذهلة من منطق القوة والنصر مستغلاً فى ذلك ثمار حرب أكتوبر التى لم تكن قد قطفناها كلها ، فقد التى السادات خلف ظهره كل الحساسيات العربية التقليدية التى تحولت مع مرور الزمن إلى قيود حديدية ثقيلة تعوق أية حركة إيجابية تجاه إعادة الأمور إلى مجاريها فى المنطقة، وأحدثت المبادرة مدها العالمى الذى لم تستطع إسرائيل مواجهته بكل ضغوطها الصهيونية مما أتاح الفرصة لأول مرة – لأمريكا لكى تقوم بدور الشريك الكامل فى مباحثات كامب ديفيد التى التى فتحت الباب للسلام العادل الدائم فى المنطقة المتفجرة. وهذا أكبر دليل على أن العالم بعد أكتوبر أصبح مختلفاً تماماً

عن العالم قبل أكتوبر حسين كنا لا كنا لا تملك سوى التشنج والتقلص والأنين والتوجع. بل أننا نجحنا فى تصدير هذه الأعراض المرضية إلى إسرائيل لكى نسقيها من نفس الكأس التى تجرعناها حتى الثمالة طوال سنى الهزيمة ، ومن هنا كنا الابتهاج العارم الذى اجتاح مؤتمر كامب ديفيد لقد أصبحت حرب أكتوبر هى آخر الحروب فى المنطقة.

ومع كل هذه التغييرات الجذرية فى تاريخ عالمنا المعاصر، لم يشار العرب أن يغيروا أنفسهم فى أثناء حرب أكتوبر ذاتها هاجمت ليبيا علناً وبصراحة القوات المسلحة المصرية وهى القوات المسلحة المصرية وهى تخوض أمجد وأشرف ومعاركها من أجل كرامة الأمة العربية، فى ديسمبر 1973 تأزمت العلاقات بين مصر وسوريا رغم رفقة السلاح – نتيجة لاتفاقية فض الاشتباك الأول بين مصر وإسرائيل ولم تبدأ تأثره سورياً إلا عندما طلب الرئيس السادات من الدكتور كيسنجر القيام بنفس فض الاشتباك بين سوريا وإسرائيل بحيث جلت إسرائيل من مساحات من مرتفعات الجولان وحصلت سوريا على مدينة القنيطرة التى كانت قد فقدتها بعد احتياج القوات الإسرائيلية للقوات السورية حتى عشرين ميلا من دمشق ذاتها.

ثم جاءت اتفاقية فض الاشتباك الثانى بين مصر وإسرائيل فى سبتمبر 1975 وكانت هذه الاتفاقية قد فشلت قبل فشلت قبل ذلك فى مارس 1975 لكن الرئيس السادات تصرف بروح أكتوبر وقام بافتتاح القناة فى 5 يونيو 1975 مما كان له دوى حضارى هائل فى جميع أنحاء العالم. وعندما وقعت اتفاقية فض الاشتباك الثانى فى سبتمبر 1975 أصابت الدول العربية أباها نفس حمى التشنج والصراخ والعويل، ووصل بها الأمر إلى تحطيم السفارات المصرية فى كل من سوريا وليبيا والجزائر والعراق. وعندما قام الرئيس برحلته إلى أمريكا وأوروبا فى أكتوبر ونوفمبر 1975 أرسلت تلك الدول بطلائها ومبعوثيها لكى يشتركوا مع الفلسطينيين فى تشويه صورة الرحلة أمام العالم الخارجى وذلك بالهتاف ضدها وكانت النتيجة أن وقفوا على نفس الرصيف والذى وقف عليه الإسرائيليون لمهاجمة بطل أكتوبر.

وتكررت نفس الحمى العربية بدرجات متزايدة مع مبادرة السلام ومؤتمر كامب ديفيد، وهذا التكرار دليل عملى دافع على أن العرب لم يتخلصوا بعد من عقدة يونيو أو عقدة حزير أن كما يسمونه. ولعل الفجوة التى تفصل الآن بين السياسة المصرية والسياسة العربية ترجع إلى أن القيادة فى مصر تتصرف من منطلق أكتوبر 1973 فى حين مازالت السياسة العربية تسك بوحى من حزيران 1967. فمن الواضح أن أكتوبر لم يكن له وجود فى حياة الدول التى تسمى نفسها بجبهة الرفض العربى، وبالتالى فهى تتصرف بنفس الأسلوب الذى ساد العالم العربى فى أعقاب يونيو 1967، وهو الأسلوب الذى وصفه موشى ديان فى تصريحه الصحفى فى يناير 1968 عندما تكلم عن العالم الذى يعيش فى العرب والذى لا يمت لحقيقة الواقع بصلة، ذلك لأن الحقيقة بالنسبة لهم فى الجحيم الذى يدفعهم إلى ابتلاع حبوب الكذب الوهم الذى يسيطر عليهم فى النهاية.

كان الأجدر بالعرب – بعد حرب أكتوبر– أن يمجوا من ذهن العالم هذه الصورة السكنية عنهم. لكن سلوكهم العلمى يؤكد أنهم لا يعترفون بأكتوبر الذى فرض نفسه على العالم.

www.anwarsadat.org